الفصل الحادي عشر

من القاتل

جلست ديما على الأريكة في تلك الحجرة المليئة بالكراكيب مقيدة اليدين، والقدمين، ومكمم فيها تنساب من عينيها الدموع، فُتح باب الحجرة من الخارج، ودلف إليها اثنان من الخاطفين توجه أحدهما نحوها وقام بوضع عصابة على عينيها بينما هي تقاومه وتصرخ صراخاً مكتوماً.

قال الرجل الآخر منفعلاً: اخرسي كفاك صراخاً.

خرج الرجلان من الغرفة تاركيها غارقة في دموعها، وقال أحدهما للآخر: سأدخل إلى دورة المياه فادخل أنت إلى الباشا أخبره أنه يمكنه الآن رؤية الفتاة. دلف الرجل إلى إحدى الغرف قائلاً: سعادة الباشا يمكنك الآن رؤية الفتاة.

فوجئ أدهم بالرجل الغريب يتصل به ويطلب مقابلته لأمر هام فاستقبله أدهم في شقته قائلاً: ما الأمر الهام الذي تريدني لأجله؟

قال الرجل الغريب: ما أخبار حبيبتك ديما هل عرفت من اختطفها؟

قال أدهم دهشاً: وكيف عرفت أنها خطفت؟

وقف الرجل أمام أدهم مباشرة وأخذ ينظر إلى عينيه وقال: مثلما يمكنك أنت أن تعرف أين مكانها لو أردت.

زادت دهشة أدهم وقال: لا أفهم ماذا تقصد. أرجوك تحدث بوضوح فأنا في حالة لا تسمح لي بالمجادلة والدخول في مناقشات سخيفة.

قال الرجل الغريب مبتسماً: هل تريد معرفة المكان الذي توجد به ديما؟

قال أدهم: بالطبع.

قال الرجل الغريب وهو يجذب أدهم من ذراعه: إذن هيا تعال معي.

انفرجت أسارير وجه أدهم وقال: أتعرف مكانها؟

قال الرجل: لا يوجد على الأرض شيء يخفى على.

وأسرع الإثنان إلى الشارع ووصلا إلى سيارة أدهم الذي هم أن يجلس على مقعد القيادة لكن الرجل الغريب قال له: دع القيادة لي.

وبالفعل ترك أدهم القيادة للرجل الغريب الذي انطلق بالسيارة بسرعة شديدة للغاية.

بينما تجلس ديما في محبسها مقيدة معصوبة العينين فتح باب الحجرة، ودلف إليها أحد المختطفون قائلاً: تفضل بالدخول سعادة الباشا.

وهنا ظهر كامل يدخل إلى الحجرة وهو يشير إلى الرجل بالصمت.

وفي الخارج وصلت سيارة أدهم إلى ذلك البيت، وقال الرجل الغريب: هنا توجد ديما.

وأسرع الرجل بالهبوط من السيارة، وأسرع أدهم خلفه، وبضربة واحدة من قدمه قام الرجل الغريب بتحطيم باب الشقة الحبيسة بداخلها

ديما فدهش أدهم بشدة من ذلك، وأسرع الإثنان إلى داخل الشقة فخرج إليهما رجلا كامل وحدث بينهم اشتباك قوي، وانتصر فيه أدهم والرجل الغريب، وتحرك أدهم إلى الداخل، وقد حاول كامل الإختباء لكنه لم يجد مكاناً يمكنه من ذلك ففوجئ بنفسه وجهاً لوجه أمام أدهم، وديما خلفه مقيدة معصوبة العينين تبك.

دهش أدهم دهشة عظيمة وقال: عمي كامل! أنا لا أصدق. أأنت الذي خطفت ديما؟

بدا الأرتباك على كامل الذي امتعض ولم يجد ما يقوله.

تركه أدهم، وأسرع نحو ديما وقام بحل وثاقها بينما وقف كامل تبدو عليه الحسرة، ووقف أمامه الرجل الغريب ينظر إليه مبتسماً شامتاً.

قالت ديما ببكاء بعد أن أزال أدهم العصابة من فوق عينيها: أنجدني يا أدهم. لا أعرف من الذي خطفني ولماذا؟

صاح أدهم منفعلاً وهو يشير إلى كامل: أنه هذا الرجل الذي كنت اعتبره كوالدي، هذا الرجل الذي يرتدي قناع الملائكة وهو شيطان خبيث.

دهشت ديما وقالت غير مصدقة: عمي كامل! غير معقول.

لم يتفوه كامل بكلمة، والتزم الصمت بينما اصطحب أدهم ديما وغادر المكان، وهو ينظر إلى كامل نظرات قاسية غاضبة.

****

قالت نادية غير مصدقة: لا يا أدهم. مؤكد أن هناك شيء غير طبيعي جعل عمك كامل يفعل ذلك.

قال أدهم منفعلاً: لا يوجد سبب لما فعله سوى إنه اتفق مع ابنه على الإنتقام من ديما لرفضها الزواج من حمزة، وسيدفع الإثنان الثمن غالياً.

قالت نادية: لا يا أدهم أرجوك لا تتصرف بحماقة. أنا واثقة أن كامل يحبك ويريد الخير لك، وأنه سيكون سعيداً إذا تزوجت ديما.

بدت الدهشة على أدهم وقال: وما الذي أعطاك كل تلك الثقة، وأمامنا دليل واضح على حقده وكراهيته لي ولديما؟

قالت نادية: لا تحكم على الأمور من مظهرها الخارجي فقط يا أدهم.

قال أدهم: لست أدري لماذا تدافعين عنه هكذا؟

عاد حمزة إلى شقته ليلاً، وقد بدا عليه الحزن، ودلف إلى والده الذي كان يجلس هو الآخر مهموماً يفكر داخل غرفة مكتبه، وألقى حمزة عليه التحية فبدت نبراته حزينة فلاحظ كامل ذلك فقال: ماذا بك؟

صمت حمزة قليلاً ثم قال بحزن: لقد أوقفوني عن العمل.

قال كامل: أبسبب ذلك التقرير الذي أتاهم من الأمن الوطني إنك تسيء معاملة المواطنين؟

أماء له حمزة إيجاباً فقال كامل منفعلاً: أنت تستحق ذلك. فكم أخبرتك بألا تتعالى على الناس، وأن تكف عن معاملتهم بتكبر وقسوة كأنهم جميعاً مجرمون.

قال حمزة: هل أنت شامتاً في يا أبي؟

نهض كامل من مكانه وسار نحو حمزة، ووقف أمامه قائلاً: وهل أشمت في ابني أغلى ما لدي في الحياة؟ كل ما في الأمر إنني سبق وأن حذرتك من تلك المعاملة السيئة التي تعامل بها المواطنين لكنك لم تهتم بكلامي، يا ولدي إن وظيفتنا هي الحفاظ على أمن وكرامة المواطن، وليس أن نستغل قوة منصبنا وسلطتنا في إهانة المواطن وجعله يشعر إننا أعدائه.

قال حمزة: وهل ستدعهم ينفذون ذلك القرار بإيقافي؟

قال كامل: لن يمكنني فعل شيء يا حمزة. فبرغم إنك ابني إلا إنني أوافق بشدة على هذا القرار حتى تكون عبرة لزملائك الذين على شاكلتك.

تحرك العميد كامل حزيناً متجهاً إلى غرفته بينما امتعض حمزة، وضرب جبهته في الحائط القريب منه.

بعد أن نام الجميع في شقة العميد كامل، وقد تخطت الساعة الثانية بعد منتصف الليل تحركت قدمان بهدوء شديد، متجهة إلى غرفة حمزة، وبهدوء أكبر فتح باب الغرفة، وسارت القدمان حتى توقفت أمام حمزة النائم على فراشه، وهنا استيقظ حمزة، وأبصر صاحب القدمين فأمسك بمسدسه، وهم أن يطلق الرصاص عليه لكن عاجله ذلك الشخص بطعنه

بسكينة كبيرة طعنة نافذة في حنجرته ثم قام بذبحه، وتناول مسدس حمزة ودسه داخل ملابسه، وهنا آتت جومانة، ورأت ذلك فصرخت لكن ذلك القاتل أسرع إليها وقام بذبحها هي الأخرى، وبهدوء شديد تحركت القدمان، وغادرت الشقة.

****

في اليوم التالي اكتشفت زوجة العميد كامل الجريمة البشعة، وسرعان ما آتت الشرطة، وتحولت الشقة إلى خلية نحل يجول فيها رجال البحث الجنائي، ورجال المباحث، والطبيب الشرعي الذي قام بمعاينة الجثتين لمعرفة كيفية القتل، وزمن حدوثه، كما أخذ خبير البصمات برفع كل البصمات الموجودة في مكان الحادث كما قام أحد المصورين بالتقاط صور لموقع الحادث، وبينما الكل منهمك في عمله جلس العميد كامل على أحد مقاعد الصالون منهاراً ويفكر فيمن له مصلحة بقتل أبناءه.

بينما نادية تتناول طعام فطورها مع أدهم رن هاتفها المحمول فتفحصت شاشته ثم نهضت من مجلسها وتحركت بالهاتف مبتعدة عن أدهم، وأخذت تتحدث ثم صدرت منها صرخة مكتومة، وألقت الهاتف، وراحت في نوبة بكاء حادة فأخذ أدهم يسألها عم حدث فقالت له: لقد قتل حمزة، وجومانة.

دهش أدهم بشدة وقال: ماذا!؟ ومن الذي قتلهما ولماذا؟

قالت نادية: لم يكتشفوا ذلك بعد.

قال أدهم: لكن من الذي كان يحدثك يا أمي؟

بدا الإرتباك على نادية وقالت: إنه.. عمك كامل.

دهش أدهم وقال بحدة: عمي كامل!؟ ولماذا اتصل بك؟

قالت نادية: يبدو.. يبدو إنه يشك أن لك يداً في تلك الجريمة.

صاح أدهم قائلاً: ماذا يريد مني ذلك الرجل؟ حقاً من تظنه موسى تجده فرعون. ألم يكتفي بخطف ديما فيريد الآن أن يلصق بي جناية قتل.

قالت نادية: إنه لم يقل ذلك صراحة، ولكنه سألني عن مكان تواجدك الليلة الماضية فأخبرته إنك كنت نائماً.

قال أدهم بحدة: من فضلك يا أمي لا أريدك أن تتحدثي مع ذلك الرجل مرة ثانية.

غادرت نادية شقتها متجهة إلى الصيدلية، وبينما تتجه نحو سيارتها ظهر العميد كامل لكنه اختبأ منها، ولم يجعلها تتمكن من رؤيته، وغادرت نادية المنطقة فأسرع كامل بالصعود إلى شقتها، وقرع جرس الباب ففتح أدهم له، وكانت دهشته عظيمة عندما وجد كامل أمامه، ووقف الإثنان ينظران إلى بعضهما في صمت إلى أن قال كامل بصوت حزين:

_ هل يمكنني الدخول:

قال أدهم: تفضل. في الواقع إن بداخلي صراع كبير بشأنك فغضبي منك يجعلني لا أرحب بك، والمصاب الذي تعرضت له بفقد أبناءك يجعلانني أتعاطف معك رغم كل ما فعلته معي أنت وأبنائك.

قال كامل بحزن: لن أتحدث معك بشأن تلك الأمور الآن. أنا هنا لأسألك سؤال واحد فقط.

قال أدهم: وما هو؟

قال كامل وهو يكاد يبكي: أدهم أأنت الذي قتلت أولادي؟

ابتسم أدهم بسخرية وقال: وهل لو كنت القاتل سأخبرك بتلك السهولة؟

فجأة أخرج كامل مسدساً من طيات ملابسه فصعق أدهم، واستطرد قائلاً: هل ستقتلني؟

قال كامل ومسدسه مصوب نحو أدهم: إنني أريد فقط معرفة الحقيقة. أأنت الذي قتلت أولادي أم لا يا أدهم؟

قال أدهم أنا لم اقتل أحداً. لو كنت أريد قتل حمزة لقتلته منذ فترة طويلة، منذ أن قام بسجني وتعذيبي دون سبب، أو عندما دبر مؤامرة افتراقي عن ديما، وتسبب في إصابتها بالمرض النفسي.

بدا الإرتياح على وجه كامل وقال: أرجو أن تكون صادقاً يا أدهم فيما قلت. أعاد كامل المسدس داخل ملابسه، وأسرع مغادراً الشقة.

داخل إحدى الشقق المفروشة بحي العجوزة جلس العميد كامل على أحد مقاعد غرفة الإستقبال حزيناً للغاية يدخن سيجارة، وينظر في ساعته وبينما هو جالس وصل إلى أذنيه صوت مفتاح يوضع في باب الشقة من

الخارج فنهض من مجلسه يترقب ذلك القادم، وفتح باب الشقة فقال كامل وهو يسير نحو القادم: لماذا تأخرت هكذا؟

كان القادم هو نادية التي أسرعت نحو كامل، وألقت بنفسها بين ذراعيه، وقالت: أنا آسفة يا حبيبي تأخرت عليك. المهم كيف حالك الآن؟

قال كامل بحزن: إنني أموت يا نادية.. حزني على حمزة وجومانة يقتلني.

قالت نادية بحزن: أقدر شعورك هذا تماماً يا كامل. لكن ألم تتمكن المباحث من العثور على أي خيط يرشدهم إلى القاتل؟

قال كامل: ما زالت التحقيقات جارية.

قالت نادية: ألم يكن لحمزة أعداء؟

نظر كامل إليها يريد أن يقول شيئاً لكنه التزم الصمت ففهمت ماذا يريد قوله فاستطردت قائلة بحدة: أدهم لا يمكن أن يفعل ذلك أبداً يا كامل.

قال كامل منفعلاً: ولماذا؟ ألم يكن بينه وبين حمزة عداوة شديدة ثم إنه يريد الإنتقام مني لظنه إنني خطفت ديما.

قالت نادية بغضب: أنت تتهم أدهم إذن إنه القاتل؟

قال كامل: أنا فقط ينتابني الشك، وأرجو أن أكون مخطئاً، وأرجو أن يكون هو أيضاً صادقاً فيما أخبرني به. لقد ذهبت إلى أدهم يا نادية وسألته أأنت قتلت أولادي فأجابني بالنفي.

قالت نادية منفعلة: وكيف تذهب إليه؟ ماذا لو كان احتد عليك؟

قال كامل: كان يجب أن أعرف منه الحقيقة يا نادية.

قالت نادية منفعلة: وماذا لو كان أخبرك إنه القاتل أكنت ستسلمه للشرطة؟ أكنت ستدخل ابنك السجن يا كامل؟

قال كامل بحزن: لو قالها لأطلقت الرصاص على رأسي في الحال فأنا لن أتحمل أن يقتل ابني أشقاءه.

قالت نادية بغضب: أرجوك لا تعذب نفسك يا كامل، وأرجوك أيضاً لا تضع أدهم موضع شك كفاه ما فعله به حمزة سابقاً.

قالتها وأسرعت إلى خارج الشقة، واستقلت المصعد الكهربائي، وفوجئت بالمصعد يتوقف، ويفتح بابه، ودهشت نادية عندما رأت الرجل الغريب أمامها فقالت بدهشة: أنت؟! ما الذي آتى بك إلى هنا؟

قال الرجل الغريب: يجب أن نتحدث يا نادية.

****

التقى أدهم وديما وبدا عليهما الحزن.

قال أدهم: رغم كل ما فعله معي حمزة إلا إنني حزنت كثيراً على موته.

قالت ديما: وأنا أيضاً حزينة على جومانة رغم ما فعلتماه معاً.

قال أدهم مبتسماً: أمازلت تتذكرين هذا؟

قالت ديما: ولن أنساه أبداً حتى أظل على حذري منك ولا أعطيك أمان ابداً.

قال أدهم: هل تريدين أن أقص شعري مرة أخرى؟

صاحت قائلة: لا. فصراحة كان مظهرك قبيحاً للغاية.

قال أدهم: الآن تقولين ذلك!؟ عامة يا حبيبتي يجب أن تثقي بي. ألا تعلمي إنني أحبك؟

قالت ديما: وألم تكن تحبني وقت أن فعلت فعلتك مع جومانة؟ صنف الرجال لا يكتفي من امرأة واحدة مهما بلغ حبه لها، تظل عيناه تتطلع لكل فتاة حتى وإن كانت أقل جمالاً من حبيبته، ويتدلى لسانه كالكلب إذا أشارت له امرأة أو ابتسمت فيسرع إليها.

ابتسم أدهم وقال: تأكدي يا حبيبتي لن أكون كلباً أبداً في يوم من الأيام.

دلفت نادية مع الرجل الغريب إلى شقته وقالت بغضب: نعم. ماذا تريد؟

قال الرجل: أريدك أن تنهي علاقتك بذلك الرجل المسمى كامل.

قالت نادية: ولماذا؟ أصرت وصياً عليّ؟

قال الرجل: أنت امرأتي التي أعشقها، ويجب أن تطيعيني.

ضحكت بسخرية وقالت: أأنت تعرف العشق؟

قال الرجل: لا تسخري مني يا نادية. أنت تعلمين جيداً إنه يمكنني الخلاص منه بسهولة فلا تضطريني لذلك.

قالت نادية محذرة: إياك أن تفعلها.

قال الرجل بصرامة: إن لم تبتعدي عنه فسوف أقتله، ولن يستطيع أحد منعي حتى أنت.

قالت نادية بتحد: لن أبتعد عنه، ولن يمكنك قتله.

قال الرجل: أتتحديني يا نادية؟ يبدو أنك نسيت من أنا؟

قالت نادية: لا لم أنسى. كل ما أرجوه منك أن تبتعد عنا. فمنذ أن ظهرت والمشاكل صارت تحاصرنا من جميع الجوانب.

قال الرجل: فات الوقت يا نادية، وحان وقت كشف الحقائق والحساب.

جلس كامل في غرفته بشقة زوجته ليلى أم أولاده شريداً، وعادت به الذاكرة للماضي..

بينما يجلس المقدم كامل في مكتبه جاءه اتصال من الشخص الأصلع الرأس ذو معالم الوجه الشرسة يخبره إنه على وشك الوصول إلى ضحيته ثم أنهى الرجل المكالمة، وأخذ كامل يحدث نفسه قائلاً: كان لابد من ذلك. لابد من التخلص من محمود حتى استعيد حبيبتي نادية وابني أدهم. ولأنتقم منه على معاملته السيئة لإبني أدهم، تلك المعاملة التي جعلت الولد يعاني مرضاً نفسياً في ذلك السن الصغير. ذلك المجرم القاسي كان يضرب الولد بكل قسوة لا يبالي ضعف جسده، أو صغر سنه.

هنا توقف كامل عن الحديث مع نفسه للحظات ثم تبدلت ملامح وجهه فتجهم وقال: مجرماً! هو مجرم، وماذا أنا أكون؟ إنني أشد أنواع المجرمون حقارة. أنا الذي من المفترض أن أحافظ على الأمن وسلامة الناس أدبر لجريمة قتل! يالا حقارتي. كيف سولت لي نفسي اتخاذ ذلك القرار الحقير؟ كيف نسيت ما وظيفتي، وعميت عن رؤية رداء الشرف الذي ارتديه. يبدو

إنني أصبت بمس من الجن جعلني اتخذ ذلك القرار. يجب أن أتصل بذلك القاتل ليتراجع عن قتل محمود.

بسرعة أمسك كامل هاتفه، وقام بالإتصال بذلك الرجل المكلف بقتل محمود لكنه فوجئ بأن الهاتف مغلقاً أو غير متاح فأخذ كامل يكرر الإتصال عدة مرات ولكن دون فائدة فضرب كامل مكتبة بيده بقوة وقال: لن أسامح نفسي أبداً.

خرج كامل من شروده عندما دخلت عليه زوجته تخبره إنها انتهت من إعداد الطعام، وكان الحزن الشديد يسيطر عليها. جلس كامل مع زوجته يتناول الطعام، وعاد بذاكرته مرة أخرى للماضي..

جلس كامل في غرفة مكتبه مهموماً، وطرق باب الحجرة فسمح كامل للطارق بالدخول.

فوجئ كامل أمامه بذلك الرجل المكلف بقتل محمود فقال كامل بقلق: ماذا فعلت؟

جلس الرجل على المقعد أمام كامل وقال بصوت هامس: البقاء لله يا سيدي. لقد تمت العملية.

بدت الحسرة على كامل، وقام بضرب رأسه في الحائط المجاور له وأخذ ينعت نفسه بأحط الصفات فقال له الرجل دهشاً: لماذا تفعل ذلك يا سيدي؟

قال كامل محتداً: أنت تخرس. لماذا كان هاتفك مغلقاً؟

قال الرجل: كان طبيعياً أن أغلقه حتى لا يتصل بي أحد وقت المهمة.

قال كامل: لعنة الله عليك. وكيف قتلته؟

قال الرجل: أنا لم أقتله يا سيدي.

بدت الدهشة على كامل وقال: كيف ذلك!؟ ألم تقل إنه قتل؟

قال الرجل: نعم قتل، ولكن لست أنا من قتله فلقد وجدته مقتولاً، وكذلك الطفل الصغير.

صاح كامل قائلاً: ماذا تقول؟ اقتل أدهم؟

عاد كامل مرة ثانية للزمن الحاضر على صوت زوجته التي قالت له: لماذا لا تأكل يا كامل؟

قال كامل: ومن يستسيغ الطعام في مثل هذه الظروف يا زوجتي الحبيبة؟

صمتت ولم تجيبه، وانسابت الدموع من عينيها بغزارة.

****